المبحث الثالث

أعرابيَّة ولغة السَّفَر

«قال أبان بن تغلب وكان عابدًا من عبَّاد أهل البصرة (توفي سنة 141هـ)[1]: شهدت أعرابيَّة وهي توصي ولدًا لها يريد سفرًا وهي تقول له: أي بني: اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، فإنَّ الوصيَّة أجدىٰ عليك من كثير عقلك.

قال أبان: فوقفت مستمعًا لكلامها، مستحسنًا لوصيتها، فإذا هي تقول: أي بني: إيَّاك والنَّميمة؛ فإنَّها تزرع الضَّغينة، وتفرِّق بين المحبِّين، وإيَّاك والتَّعرض للعيوب فتتخذ غرضًا وخليق أن لا يثبت الغرض علىٰ كثرة السِّهام، وقلما اعْتَوَرت السِّهام غرضًا إلا كلَّمته حتي يَهِي ما اشتد من قوته، وإيَّاك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريمًا يَلِن لهِزَّتك، ولا تهزُز اللئيم فإنَّه صخرة لا ينفجر ماؤها، ومَثِّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه؛ فإنَّ المرء لا يرىٰ عيب نفسه، ومن كانت مودته بِشَرِّه، وخالف ذلك منه فعله كان صديقه منه علىٰ مثل الرِّيح في تصرفها. ثم أمسكت فدنوت منها، فقلت بالله يا أعرابية إلا زدته في الوصية. فقالت: أو قد عجبك كلام العرب يا عراقي، قلت: نعم. قالت: والغدر أقبح ما تعامل به النَّاس بينهم، ومن جمع الحِلْم والسَّخاء فقد أجاد الحُلَّةَ رَيْطَتَها وسِرْبَالَهَا»[2].

يحتاج عالم الترحال دائمًا إلىٰ صاحب القلب الجريء والعقل الذَّكي خاصَّة قديمًا؛ وذلك لوجود كثير من المخاطر التي تصحبه وتحيط به، فرَّبما قد تجد من يوصي ولده بالتَّحلِّي بالمكر والدَّهاء والحيلة والخديعة حتىٰ ينجو بنفسه ويعود إلىٰ

(1) ما بين القوسين من ذيل جمهرة خطب العرب. أحمد زكي صفوت ص244- دار الكتب العلمية - بيروت.

(2) الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي 2/ 81- دار الكتب العلمية - بيروت - 1398هـ-1978م، وذيل جمهرة خطب العرب ص244، 245.

أهله سالمًا غانمًا، فالصحراء مظنَّة المهلكة، ولكن الأعرابية لها منهج آخر في وصيتها، فهي لا تريد أن تعكِّر صفحة حياتها بتلك الخلال الذَّميمة والمعاني الرديئة وإنَّما تريد أن تعلِّم الأمهات كيف يقمن بتربية أبنائهن تربية صحيحة، فرق كبير بين أن يُرَبَّىٰ الأبناء علىٰ الغشِّ والخداع فينظرون إلىٰ الدُّنيا نظرة من يعيش في غابة، يريد أن يستحوذ علىٰ حقِّه وعلىٰ غير حقِّه، ومن يريد أن يحيا كريمًا ويموت كريمًا، كلاهما يعيش ولكن عالم المثل والأخلاق النبيلة تستقبله صفحات التَّاريخ بالودِّ والترحاب، وعالم الغشِّ وإن كنت تراه مُسَطَّرًا إلا أنَّه بلا عنوان ولا هوية. فهذه وصية واحدة ولكنها تجمع عدَّة وصايا كل عبارة منها وإن كانت تنتمي إلىٰ عالم خاصٍّ بها إلا أنَّها في النِّهاية تجتمع فتكوِّن نصًّا واحدًا جامعًا لكل معاني البرِّ والصَّلاح ومكارم الأخلاق، فلا أعتقد أنها تركت بابًا من أبواب الخير إلا نبَّهت إليه، ولا صفحة من صفحات التَّربية الصَّحيحة إلا أشارت إليها، فعندما ترىٰ مظاهر الجمال من حولك تهتف قائلاً سبحان الله، كذلك عندما تسمع كلمات وعبارات تنفذ إلىٰ القلوب قبل العقول تقف وتسأل المزيد. وهذا ما حدث مع أبان بن تغلب، حيث استمع واستمتع بوصية أعرابية لولدها في إحدىٰ رحلاته، فظل واقفًا متعجبًا من هذه الفصاحة والبلاغة التي تجسَّدت علىٰ لسانها وكأنَّها نسيج دقيق وفريد من لؤلؤ ومرجان فتسمع وكأنَّك ترىٰ، لا تمتلك حينئذ إلا عبارات الدَّهشة والاستغراب.

فتأمَّل هذه الوصية بأساليبها الإنشائية والخبرية، فتجد البدء بالإنشاء الطلبي في صورة النِّداء في قولها: أي بني، ثم تعيده مرَّة أخرىٰ وذلك من أجل أن يستمع إليها ويطمئن إلىٰ كلامها، ثم النهي في قولها: ولاتهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، ثم يأتي أسلوب الخبر في غالب أركان الوصية وإن كان يحمل معنىٰ الإنشاء في الصورة الأولىٰ فتلحظ التَّحذير الذي يحمل معنىٰ الأمر مثل: إيَّاك والنَّميمة، وإيَّاك والتَّعرض للعيوب، وإيَّاك والجود بدينك والبخل بمالك، ثم تجد الشَّرط مثل: وإذا هززت فاهزز كريمًا، ثم تختم الحوار كذلك بأسلوب الخبر مثل: والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن جمع الحِلْم والسِّخاء فقد أجاد الحُلَّة

رَيْطتها وسِرْبالها، فتراها في عرض الوصية تعتمد علىٰ أسلوب التَّحذير تبدأ به، ثم تثنِّي وتثلِّث به كذلك، ثم يأتي رابعًا تنبيهًا عن البعد عن كل ما ينافي مكارم الأخلاق، ثم تأتي النهاية بعرض بعض هذه المكارم حتىٰ يحدث الارتباط بين البدء والختام، فكأنَّ بنود هذه الوصية دستور ينظِّم حياة ولدها في السَّفر، مع التَّعليق علىٰ مخاطر كل بند وأضراره التي تلحق به حتي تقدِّم الشَّاهد والدَّليل، فدع العقل يفكِّر حتىٰ يتبيَّن ويستوضح ثم احكم بعد ذلك.

وعندما نظرت إلىٰ الألفاظ والعبارات الخاصة بهذه الوصية وما يؤدِّيان من دلالات رأيت توزيعهما إلىٰ ثمانية أجزاء، كل جزء منها يشتمل علىٰ وصية منفردة بنفسها، ثم قمت بالتَّعليق على كل جزء على حدة:

الجزء الأول: إيَّاك والنَّميمة فإنَّها تزرع الضَّغينة وتفرِّق بين المحبِّين

فالنَّميمة: نقل الحديث من قوم إلىٰ قوم علىٰ جهة الإفساد والشَّرِّ. والضَّغينة: الحِقْد[1].

في البداية تنبِّه الأعرابية ابنها إلىٰ باب خطير من تلك الأبواب التي تورث الحقد وتزرع بذور الكُره بين النَّاس فتريد أن تغلقه عليه حتىٰ يظل محبوبًا بين بني البشر -مَنْ يعرفه ومَنْ لا يعرفه-، وهذا الباب قد أفسد علىٰ كثير من الناس حياتهم ومزَّق شملهم -سواء علىٰ مستوىٰ الأفراد أم الجماعات-، فنقل أحاديث النَّاس من مجلس إلىٰ مجلس آخر لمحاولة الإيقاع بينهم، وهو ما يعرف بمصطلح النَّميمة لون خطير من ألوان الشَّرِّ وإثارة البغضاء بين النَّاس والتَّفرقة بين المحبِّين. نعم نختلط بالنَّاس ونتحدَّث معهم ونأنس بهم ونسمع منهم ويسمعون منَّا ولكن أن يتخذ ذلك مصدرًا لكسب لقمة العيش أو لكسب ودٍّ ومحبَّة بعضهم علىٰ حساب الآخرين، أوللتَّفريق بينهم فهذا ما لا يحمد عقباه، فالجسد الواحد في الأمَّة لا عنوان له إلا إذا سيطرت عليه مشاعر النُّبل والأخلاق وإيثار النَّفس علىٰ النَّفس.

(1) ينظر: لسان العرب (ن م م) 6/ 4551، (ض غ ن) 4/ 2592.

الجزء الثاني: إيَّاك والتَّعَرُض للعيوب فتتخذ غرضًا، وخليق أن لا يثبت الغرض علىٰ كثرة السِّهام، وقلما اعْتَوَرت السِّهام غرضًا إلا كلَّمَتْهُ حتىٰ يَهِي ما اشتدَّ من قوته

تحذير ثان دلالته التَّرفُّق والتَّلطُّف بحال الناس، فمن منَّا من لم تحطه العيوب من أعلىٰ رأسه إلىٰ أسفل قدميه، ومن منَّا من لم تكتنف شخصيته كثير من المفاسد، إنَّنا نعيش في عالم البشر، والبشر بقدر ما يتمتعون به من صلاح القلوب وصفاء سريرة النَّفس فلا تخلو حياتهم من أمارات الكذب والتَّضليل، وهذا واقع نشهد ونقرُّ به، فإذا كان منهج حياتك النَّظر في عيوب الناس وتتبع زلاتهم فلن تستقيم حياتك لأنَّك ستكون أنت الآخر محلاً لحديث النَّاس عنك، فالدَّائرة تدور حتمًا علىٰ من بغىٰ، فإذا أصرَّ الإنسان علىٰ النَّظر إلىٰ عيوب الناس وإذاعتها ونشر تفاصيلها فحتمًا سيكون هدفًا لحديث النَّاس عنه في يوم من الأيام، والهدف مهما كانت قوته وصلابته فلن يستطيع أن يصمد أمام كثرة السِّهام، فلابد من أن تصيبه لحظة ما.

والنَّظر في دلالة المفردات ومجموع العبارات يوضح هذه التَّفاصيل:

فالغرض: هو الهدف الذي يُنْصَب فَيُرْمَىٰ فيه، والجمع أغراض. والسِّهام: السَّهْم: واحد النَّبْل، وهو مَرْكَبُ النَّصْل، والجمع أسهم وسهام.

قال ابن شميل: السَّهْمُ: نفس النَّصْل. واعْتَوَرَتْ: يقال: عاوره الشيء، أي فعل به مثل ما فعل صاحبه به، وكلَّمَتْهُ: الكَلْمُ: الجُرْحُ، ويَهِي: يضعف[1].

أفاضت الأعرابيَّة في عرض تفاصيل هذا البند وآثاره السلبية، فقد يظنُّ بعض الناس في وقت ما أن نقل الأحاديث خاصَّة ما يجرح كرامتهم وكبريائهم هو مدخل للوصول إلىٰ قلوب بعضهم فهذا أمر ترفضه القيم والأخلاق، فإذا اتخذْت بعض الناس هدفًا لتحقيق آمالك فسوف تتخذ هدفًا في يوم ما، وكلَّما أكثرت في ذكر

(1) السابق (غ ر ض) 5/ 3242، (س هـ م) 3/ 2135، (ع و ر) 4/ 3168، (ك ل م) 5/ 3923، (و هـ ي) 6/ 4936.

معايب الناس كلَّما أكثروا في ذكر معايبك، ومهما يكن بك من قوَّة فلن تستطيع أن تقوىٰ دائمًا فلا بد من أن تضعف ويسدل ستار حياتك لحظة ما.

الجزء الثالث: إيَّاك والجود بدينك والبخل بمالك

تحذير ثالث تسَطِّره هذه العبارة الموجزة والكلمات التي أحكم بناؤها، فالجود: السَّخاء، ورَجُل جَواد: سَخي، والبُخْل: ضد الكرم[1].

شيء جميل أن تكون كريمًا وأن تجود بأحبِّ ما تمتلك، ولكن أن يكون ذلك علىٰ حساب دينك فتتساهل في تطبيق تعاليمه وأحكامه ومبادئه من أجل إرضاء البشر، أو من أجل تحقيق مصلحة ما فهذا أمر ترفضه الإنسانيَّة وتصرُّ علىٰ رفضه، فقد يجود الإنسان بابتسامة من أجل بثِّ الودِّ والتَّحاب بينه وبين غيره، وقد يتسامح في غير ضعف، وقد يعين غيره لقضاء حوائجه، وقد يجود بأنفس ما لديه طواعية وتكرُّمًا، ولكن أن تهتزَّ صورة الدِّين في قلبه، وأن يكون حبُّ المال لديه أحبَّ إليه من دينه فهذا دين مَنْ لا خلاق له، فقد تستحوذ الدُّنيا علىٰ قلوب بعض النَّاس فتسيطر عليهم فيعتقدون أنَّ كسب المال من حسن تدبيرهم وذكاء عقولهم فيمسكونه كما تمسك الأرض الطَّيبة الماء، في حين تجد الدِّين عندهم مهضوم الحق مهيض الجناح فيبخل بماله ويجود بدينه، فاحذر كل الحذر من أن تكون من هؤلاء إن أردت عيش السُّعداء وموت الأتقياء.

الجزء الرابع: إذا هَزَزْتَ فاهْزُزْ كريمًا يَلِن لهِزَّتِك، ولا تهزُز اللئيم فإنَّه صخرة لا ينفجر ماؤها

دلالة المفردات توضح مفهوم العبارات، فـ: هَزَزْتَ: من الهزِّ: وهو تحريك الشيء كما تَهُزُّ القناةَ فتضطرب وتهتزُّ. ويستعار فيقال: هَزَزْتُ فلانًا لخير فاهْتَزَّ، وهَزَزْتُ الشيء هزًّا فاهتَزَّ: أي حرَّكته فتحَرَّك[2].

(1) لسان العرب (ج و د) 1/ 720، (ب خ ل) 1/ 222.

(2) السابق (هـ ز ز) 6/ 4661.

النَّاس في الدُّنيا صنفان: إما كريم وإما لئيم، فإذا أردت أن تضع كل شيء في نصابه وأن تنزل الناس منازلهم فأعط لكل قدره، فامدح كريمًا يعرف قدرك ويستجيب لمدحك بنفس راضية دون أن يداخله الشَّك والرَّيب، أما اللئيم فكن علىٰ حذر من مدحه فإنَّه يشكُّ في جميع مَنْ حوله حتىٰ في نفسه؛ لأنَّه لا يحبُّ غيرها، ولا يستجيب إلا لندائها، فلن يستجيب لمدحك حتىٰ وإن عرضت عليه جميع ألفاظ اللغة في المدح والإطراء، وجميل العبارات في الثَّناء، فالصَّخرة لن يتفجَّر منها الماء كما أنَّ قلبه لن يتفجَّر منه الخير؛ لأنَّه ما تعود أن يتَّأثر ولكنَّه أراد أن يأخذ دون أن يَرِدَ العطاء في قاموس حياته.

الجزء الخامس: مَثِّل لنَفْسِك مِثالَ ما استحسنت من غيرِك فاعمل به، وما استقبحت من غيرِك فاجتنبْه، فإنَّ المرء لا يرىٰ عيب نفسه فالمِثْل: ما جعل مثالاً، أي مقدارًا لغيره يحذىٰ عليه. والمثال: القالب الذي يُقَدَّر عليه[1].

تفرض الحياة البشريَّة لغة التَّواصل وتقف أمام كل مَنْ يغلق عليه بابه فتعطيهم مساحة التَّأثير والتأثُّر والقبول والرفض والرأي والرأي الآخر، وفي أثناء هذه الرحلة تجد بعض النَّماذج التي اتَّخذت مكارم الأخلاق بكل معالمها ومعاييرها لها عنوانًا، فاقترب من هؤلاء واحذوا حذوهم واتخذهم قدوة لك فلن يخيب رأيك ولن تكون نهايتك بل تكون بدايتك، في حين وبكل قوَّة احذر من تلك النَّماذج الأخرىٰ التي أحذت عهدًا بينها وبين نفسها علىٰ رفض كل ما هو جميل والتَّحلِّي بكل ما هو قبيح فاجتنب هؤلاء وكن منهم علىٰ حذر، فأصحاب المكارم ينبهونك إلىٰ عيبك بخلاف غيرهم، وما أجمل أن تنتبه عندما تنبَّه فالمرء لا يرىٰ عيب نفسه.

الجزء السادس: من كانت مودَّتُه بِشَرِّه وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه علىٰ مثل الرِّيح في تصَرُّفها

الخير والشَّرُّ يتدافعان في قلب كل مَنْ يسكن هذه الأرض فيظل النَّاس في

(1) السابق (م ث ل) 6/ 4134.

صراع حتىٰ تقول الحياة كلمتها الأخيرة، ولكن قد يتغلَّب الخير في قلوب بعضهم فتهدأ نفوسهم وتطمئن قلوبهم، ولكن منهم من يقف الشَّرُّ علىٰ بابه بالمرصاد ويسير معه صباح مساء، يلبسه كما يلبس نعليه، وليت الأمر يقف عند حدِّ نفسه ولكنَّه يكتسب وصل الناس وحبَّهم بهذا الشَّرِّ فيحبونه رياء ونفاقًا دفعًا لشرِّه وجبروته وأفعاله وأقواله تشهد بذلك، فتراه في حال الرَّخاء من الأتقياء الصَّالحين، لكن في حال الشِّدَّة من الأشقياء الطَّالحين، وهذا مثل الرِّيح في تصَرُّفها أو تقلُّبها، يتغيَّر من حال إلىٰ حال، ومن قِبْلة إلىٰ أخرىٰ، وتصريف الرِّيح: صرفها من جهة إلىٰ جهة. وتصريف الرِّياح: جعلها جنوبًا وشمالاً وصَبَا ودبُورًا[1]، فهي عندما تشتدُّ فهي تأكل الأخضر واليابس فحاذر أن تكون صديقًا له أومن أعوانه؛ لأنَّك حينئذ ستكون في خطر عظيم، تعتقد أنَّ شرَّه لن يقترب منك بقربك منه لأنَّك من أصدقائه ولكن ربَّما تكون أنت أول من يصطلي بناره.

الجزء السابع: الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم

فالغَدْر: ضد الوفاء بالعهد، والقبح: ضد الحُسن يكون في الصُّورة؛ والفعل[2].

تلفت نظر ولدها إلىٰ الأمانة التي تجسِّد لغة الحبِّ والإخلاص بين بني البشر، فالإنسان عندما يتعامل مع غيره ربَّما يتعامل بصورة طبيعية لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع ويفضي إليه بجميع أسراره ظنًّا منه أنَّه يتحدث مع نفسه فتأتي الكارثة التي يرىٰ فيها نفسه صورة حيَّة أمام الناس، وهذا من أقبح ألوان الغدر وإن كان الغدر مرفوضًا بجميع صوره وأشكاله، فحاذر من الخيانة إن أردت السَّعادة، فإذا ظننت أنَّها تأتي نتيجة لعدم الوفاء بالعهود والمواثيق فلست من بني البشر.

الجزء الثامن: من جمع الحِلْمَ والسَّخاء فقد أجاد الحُلَّةَ رَيْطَتَها وسِرْبَالَها .

فالحِلْم -بالكسر-: الأناة والعقل. والحِلْم: نقيض السَّفه. والسَّخاء: الجود.

(1) السابق (ص ر ف) 4/ 2435.

(2) السابق (غ د ر) 5/ 3216، (ق ب ح) 5/ 3508.

والحُلَّة: رداء وقميص وتمامها العمامة، ولا يزال الثَّوب الجيد يقال له في الثِّياب حُلَّة، والرَّيْطة: المُلاءَة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لِفْقَيْن؛ وقيل: الرَّيْطَةُ: كل ملاءة غير ذات لِفْقيَن كلها ذات نسج واحد، وقيل: هو كل ثوب لين دقيق، والجمع رَيْطٌ ورِيَاطٌ.

قال الأزهري: لا تكون الرَّيْطَةُ إلا بيضاء، والسِّربال: القميص والدِّرع، وقيل: كل ما لُبِسَ فهو سِرْبَال[1].

جمال الظَّاهر شيء وجمال الباطن شيء آخر، فقد يتسربل بعض النَّاس بأزهىٰ الثِّياب ولكن قلوبهم صمَّاء لا تعي وأيديهم مغلولة لا تستطيع أن تجود، ولكن العفو والصَّفح إضافة إلىٰ الجود والكرم أجمل ثياب يمكن أن تتجمَّل به وأن تمشي به بينهم، ومن فعل ذلك فقد أجاد الحُلَّة رَيْطتها وسِرْبالها، فالسَّماء تجود بالمطر ربَّما يكون سخاء رخاء وربَّما يكون هلاكًا ودمارًا، فالثَّوب واحد ولكن جماله ليس في شكله ومظهره وإنَّما في جوهر مَنْ يزدان به وأخلاق مَنْ تصفو سريرته.

فهذه الوصية وإن سطِّرت في مجال السَّفر خاصة إلا أنها قد قدَّمت معيارًا ومبدًا عامًّا للحياة غايته تقديم الصُّورة المثلىٰ للنَّموذج البشري الذي يحتكم إلىٰ المكارم، باحثًا عن الفضائل، مدركًا لخطورة الرَّذائل، لا يرىٰ نفسه في الدنيا إلا إنسانًا بجميع ما تحمله الإنسانية من معان، تبدأها بالتَّحذير ولفترات طويلة وتختمها بالحكمة والموعظة الحسنة حتىٰ يرتبط أول الكلام بآخره.

(1) السابق (ح ل م) 2/ 980، (س خ ي) 3/ 1967، (ح ل ل) 2/ 978، (ر ي ط) 3/ 1792، (س ر ب ل) 3/ 1983.